

العنوان:	غزل ابن حزم : دراسة في جدل السيرة والشعر
المؤلف الرئيسي:	أيوب، علي مصطفى محمد
مؤلفين آخرين:	عليان، مصطفى(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2005
موقع:	الزرقاء
الصفحات:	1 - 218
رقم MD:	749009
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
اللغة:	Arabic
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	الجامعة الهاشمية
الكلية:	عمادة البحث العلمي والدراسات العليا
الدولة:	الأردن
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	الشعر، السيرة، المفكرين الإسلاميين، ابن حزم
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/749009

للاستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب أسلوب الاستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

أيوب، علي مصطفى محمد، و عليان، مصطفى. (2005). غزل ابن حزم: دراسة في جدل السيرة والشعر
(رسالة ماجستير غير منشورة). الجامعة الهاشمية، الزرقاء. مسترجع من
<http://search.mandumah.com/Record/749009>

إسلوب MLA

أيوب، علي مصطفى محمد، و مصطفى عليان. "غزل ابن حزم: دراسة في جدل السيرة والشعر" رسالة
ماجستير. الجامعة الهاشمية، الزرقاء، 2005. مسترجع من <http://search.mandumah.com/Record/749009>

غَزَلُ ابْنِ حَزْمٍ

(دراسة في جدل السيرة والشعر)

إعداد

علي مصطفى محمد أيوب

المشرف

الأستاذ الدكتور مصطفى عليان

قُدِّمَت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في الأدب والنقد

عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

الجامعة الهاشمية

أيار 2005

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ :

أعضاء لجنة المناقشة

التوقيع

..... الأستاذ الدكتور مصطفى عليان ، رئيساً
..... أستاذ الأدب والنقد
..... الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي ، عضواً
..... أستاذ الأدب والنقد
..... الدكتور محمود أبو الخير ، عضواً
..... أستاذ الأدب والنقد المشارك
..... الدكتور محمود الحلولي ، عضواً
..... أستاذ الأدب والنقد المساعد

الإهداء ...

إلى من ربياني صغيراً ، وحملأ همي كبيراً ، وكتبأ هذه الدراسة بقلبيهما
قبل أن أكتبها بقلمي ... إلى والديّ الغاليين ،

إلى ربيع حياتي ، ومعنى وجودي ، وسندي في لحظات عجزتي ، إلى
أشقائي وشقيقاتي ، ،

إلأكم جميعاً ، أهدي هذه الدراسة

أترضونها ؟

شكر وتقدير

أتقدم بالشكر والتقدير إلى كل من قدم لي يد العون في إعداد هذه الدراسة ، أو

أسدى لي النصح في تقويمها وإخراجها .

وأخص بشكري وامتناني ، أستاذي الفاضل ، الأستاذ الدكتور مصطفى عليان ،

الذي طالما كانت له وقفاته وإشارات وإرشاداته ، التي كان لها أكبر الأثر في أن ترى

هذه الرسالة النور ، ومهما أجزلت له الثناء فسأبقى مقصراً ، فجزاه الله خيراً .

وأكرر الشكر لأعضاء لجنة المناقشة الأفاضل : الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد

المُهدي ، والدكتور محمود أبو الخير ، والدكتور محمود الحلولي ، على تكريمهم بقراءة

هذا البحث ، وإثرائه بالملاحظات الشافية ، والأفكار الغنية .

والحمد لله أولاً وآخراً

قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحات
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
شكر وتقدير	د
قائمة المحتويات	هـ . و
قائمة الجداول	ز
الملخص باللغة العربية	ح . ي
المقدمة	5 . 1
الفصل الأول : السيرة والفكر والموهبة	66 ■ 6
المبحث الأول : سيرته	30 . 7
المبحث الثاني : الظاهرية والطوق	49 . 31
أولاً : ظاهريته وأصولها	41 . 31
ثانياً : طوق الحمامة	45 . 42
ثالثاً : المذهب الظاهري وتأليف الطوق	49 . 46
المبحث الثالث : موهبته الفنية ونشاطه الأدبي	65 . 50
الفصل الثاني : جدل السيرة والشعر	120 ■ 66
المبحث الأول : سير الطوق وأخباره	80 . 67
أولاً : أهمية دراسة سير الطوق	69 . 67
ثانياً : أصناف السير في الطوق	76 . 69
ثالثاً : مصداقية السير	80 . 76
المبحث الثاني : التجربة الشعرية في الطوق	111 . 81
أولاً : مفهوم التجربة الشعرية	84 . 81
ثانياً : التجربة الشعرية في الطوق	90 . 84
ثالثاً : مصادر التجربة الشعرية في الطوق	97 . 91
رابعاً : خصائص التجربة الشعرية في الطوق	106 . 97

111 . 106	خامساً : رأي في تجربة الطوق الشعرية
120 . 112	المبحث الثالث : الموقف النقدي في الطوق
199 ■ 121	الفصل الثالث : الدراسة الفنية
163 . 122	المبحث الأول : اللغة والأسلوب
125 . 122	تمهيد
153 . 126	- المستوى الأول : اللفظ المفرد (المعجم اللغوي) .
134 . 126	أولاً : حقل ألفاظ الحب والغزل
140 . 134	ثانياً : الألفاظ الدينية
143 . 141	ثالثاً : مصطلحات الفلسفة والمنطق وعلم الكلام
144 . 143	رابعاً : مصطلحات اللغة
147 . 144	خامساً : الألفاظ التاريخية
153 . 147	وقفة مع الأستاذ الأفغاني حول ألفاظ ابن حزم
163 . 153	- المستوى الثاني : التركيب (الأسلوب الجملي)
181 . 164	المبحث الثاني : الصورة الفنية :
166 . 164	تمهيد
169 . 166	أولاً : الصورة التشبيهية
174 . 169	ثانياً : الصورة الاستعارية
181 . 174	ثالثاً : مصادر تشكيل الصورة
199 . 182	المبحث الثالث : الإيقاع :
184 . 182	تمهيد
191 . 184	أولاً : الموسيقى الخارجية
195 . 191	ثانياً : الموسيقى الداخلية
199 . 195	ثالثاً : دراسة نص
205 . 200	الخاتمة
218 . 206	قائمة المصادر والمراجع
220 . 218	الملخص باللغة الإنجليزية

قائمة الجداول

<u>الصفحة</u>	<u>اسم الجدول</u>
125	جدول تكرارات مرادفات الحب
130	جدول تكرارات مرادفات البغض
184	جدول بالأوزان المستعملة في غزل ابن حزم
185	جدول بالقوافي المستعملة في غزل ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص

ابن حزم الأندلسي أحد عظماء الفكر العربي الإسلامي ، على امتداد عصوره عامة ، وفي القرن الأندلسي الخامس خاصة .

ولد سنة (384هـ) في قرطبة ، وقضى سنين صباه فيها . وهي على شفا جُرف هارٍ من الخلاف والفتنة والخراب . بين أحضان والده الوزير ، تدر عليه الدنيا من أفويقها ، وتأخذه بالرعاية والعطف أيدي نساء فاضلات ، ذوات ثقافة تربوية مميزة ، حتى إذا أُنِع واستوى على عوده، أقبلت فتنة البربر ، بوجهها البائس لتخرجه عن قرطبة سنة أربع وأربع مئة ، وتطوَّح به في أرجاء الأندلس ، فتنقل في مدنها يقوده ولاؤه للأُمويين ، ويحدوه الأمل في إعادة الخلافة إليهم ، حتى إذا استيأس من المحاولة ، وعلم أن الداء قد استفحل بحيث لا يجدي مع هـ علاج، توجه نحو العلم، لعله يجد فيه السبيل لرأب الصدع ، وإصلاح الفساد ، فاختار المذهب الظاهري في فترة مبكرة من حياته ، ليكون رائده في النقد والتوجيه والحكم فيما بعد ، وليكون أيضاً السيف المصلت الذي حمله عليه فقهاء الأندلس ، يطاردونه من مكان إلى مكان، ومن أمير إلى أمير ، حتى لم يجد إلا أن يقيم في بلدته ، يبيت علمه فيمن ينتابه من عامة المقتبسين منه ، من أصاغر الطلبة .

وبعيد هذه المرحلة - أي اختيار المذهب الظاهري- ألف طوق الحمامة ، تلبية
لرغبة صديقٍ في مبدئه ، وتلبية لرغبة ابن حزم الكامنة في منتهاه ، فجاء يحمل في
سطوره ذلك الامتزاج بين الأنا والآخر ، بشكل منهجي وفني جميل لم يسبق إليه ،
اهتدى إليه بما يمتلكه من موهبة أدبية ونقدية ، تجلت مظاهرها منذ نعومة أظفاره .
وجاء الفصل الثاني ليؤكد أن هذا الكتاب ، يقوم على التأخي الشديد بين سير
المحبين وأخبارهم التي حصل منها أبو محمد الكثير ، ومقطوعات غزلية، أبى إلا أن
تكون من نظمه.

ولا شك - في ظني - أن أغلب الأخبار المروية في الطوق ، صادقةٌ وحقيقيةٌ،
على الرغم من توهين بعض الدارسين لصحتها ، وقد كانت هذه الأخبار هي المصادر
الأولى التي تفرع إليها مقطوعات ابن حزم الشعرية ، فتستوحي مضامينها أو أحداثها، أو
تنظر إلى ما يستشهد به منها ، ومن هنا كانت مصادر التجربة الشعرية في الطوق
تعود في جُلّها إلى هذه السير والأخبار ، الأمر الذي كان له تأثير هائل على المصادقية
الفنية للتجربة .

وابن حزم كان يعضد نصوصه بملاحظات نقدية ، يبتغي بها أن يبين جوانب
التميز في غزله ، وأن يقدمه إلى الجمهور ممثلاً لتجربة الأندلسيين .

ولذلك جاءت الدراسة الفنية لتحاول الكشف عن العناصر الشكلية لهذه التجربة،
وتبين أنها تصلح أن تمثل صاحبها أكثر من تمثيلها لاتجاه بأكمله ، حيث تنعكس في

لغتها وأسلوبها آثار العلوم المختلفة التي حصلها ، كما تظهر من خلالها بعض ملامح شخصيته وصفاته الفكرية، وقلما نلمح فيها جنوحاً إلى الغموض والإغراب، أو نزوعاً نحو التّعبد والحوشية .

وأما مرسومه ، فقد أبدع فيه من الصور على اختلافها ، سواء المفردة منها أو المركبة ، ولجأ إلى مختلف الأدوات ، فاستخدم التشبيه المفرد والضمني والتمثيلي، كما نجح في استعمال الصور الاستعارة رقيقة، وكانت لديه بعض الصور النابضة بالحياة والحركة ، ومعظم تلك الصور مستوحاة إما من علومه وثقافته المتنوعة ، أو من الطبيعة الأندلسية والقرطبية ، مما جعل بعضها يتسم بالغموض ، أو بالخصوصية المطلقة .

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان ابن حزم موسيقياً كبيراً ، استطاع أن يوقع تجربته على معظم الأوزان ، وأن يغرد بمختلف القوافي ، وكان يلجأ إلى تقنيات إيقاعية أخرى ، تمنح النص موسيقية مميزة كالجناس ، أو تقسيب البيت إلى وحدات بنائية موسيقية صغيرة ، أو الإكثار من حروف ذات أثر صوتي معين .

أخيراً ، أرجو أن أكون قد وفقت في هذا الأسطر ، إلى عرض الدراسة بشكل موجز ، يمكن أن يعطي صورة عامة عن محتواها .

والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبرحمته تُرْفَع الدرجات، وتُحَطُّ الخطيئات وأصلي وأسلم على من هداانا إلى النور بعد الظلمات ، خير المخلوقين ، وأشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى آل بيته الأخيار الأطهار، وأصحابه المؤمنين الأبرار ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

فقد اتجهت أنظار الدارسين في وقت مبكر من القرن المنصرم إلى دراسة تراث الأندلس وحضارتها ، وإلى الكشف عن مظاهر تفوقها وامتيازها ، وكان للأدب من ذلك نصيب وافرٌ ، سواء من دراسات للمستشرقين، أو دراسات للباحثين العرب .

ومنذ أن كُنْتُ في المرحلة الجامعية الأولى ، وددت بلأن أكون مشاركاً في هذا البحث ، وكم كانت أطياف الأندلس وأهلها تداعب خاطري ، حين أطلع على نصٍّ لأحد أدبائها ، ذلك أن لأدبهم نكهةً خاصة لا تماثلها آداب العصور العربية الأخرى ، لذلك كان لا بد أن يقر قراري على دراسة ظاهرة فنية أو شخصية أدبية أندلسية.

فلستعنت بالله ، ثم لجأت إلى أستاذي الدكتور مصطفى عليان - حفظه الله - فأرشدني إلى أبواب عدةٍ يمكن أن نتناول بالدراسة والبحث فيما يخص الأدب الأندلسي ،

وكان منها غزل ابن حزم ، وأراد الله أن يكون هذا هو موضوعَ دراستي ، بعد أن اقتتعت بأن هذه الشخصية تستحق البحث والتدقيق والدراسة أكثر مما وُجِّهَ لها .

ووجدت في إطار البحث الأولي عن مصادر الدراسة ؛ أن معظم من درسوا ابن حزم ، لم يخصصوا غزله بدراسة مفصلة ، وإنما تحدثوا بشكل عام عن شعره وخصائصه وبعض ملامحه الفنية ، دون تفصيل أو استقصاء .

وأهم هذه الدراسات ما كتبه د . إحسان عباس في كتابه : ((تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة)) وما كتبه الدكتور مصطفى عبد الواحد في كتابه : ((دراسة الحب في الأدب العربي ج 2)) .

وتأتي دراسات أخرى تناولته تاريخيًّا ، أو تناولت أبرز ملامح شخصيته بشكل عام ، وأهم هذه الدراسات وأكثرها قيمة وتميزاً ؛ دراسة د . طه الحاجري : ((ابن حزم صورة أندلسية)) و يليه كتاب د . الطاهر مكي ((دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة)) .

وقد كان اعتمادي في الدرجة الأولى في هذه الدراسة لغزل ابن حزم على كتابه طوق الحمامة ⁽¹⁾ ، إذ يحوي جميع غزله المقصود بالدراسة ، وقد حاولت أن أتخذ هذا

(1) النسخة المعتمدة من هذا الكتاب في الدراسة ، هي الصادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع ، بتحقيق د. إحسان عباس - رحمه الله حيثما ذُكِرَ - ، سنة 1993 ، وهي نسخة مستقلة ليست ضمن رسائله ، وعند الرجوع إلى طبعاتٍ أخرى سيتم التنويه إلى اسمها .

الكتاب وحده نبراساً لاستخلاص النتائج ؛ وبناء الصورة العامة لكل مبحث من مباحث الدراسة .

والحق أن هذا الكتاب يعد أثراً أدبياً ثميناً ، لما يحويه من نصوص رثية ، ومقطوعات شعرية ، امتزجت معاً حتى صارت سبيكة واحدة ، ومن هنا اهتمت الدراسة أيضاً بدراسة جدلية العلاقة بين النثر ؛ ممثلاً في السير والأخبار المروية ، والشعر ؛ ممثلاً في تلك المقطوعات الغزلية الحزمية الخالصة .

وتأتي هذه الدراسة في ثلاثة فصول ، تسبقها هذه المقدمة وتتلوها خاتمة ، قسمت الفصل الأول فيها إلى ثلاثة مباحث، درست في أولها سيرة ابن حزم من حيث ولادته وتربيته وثقافته ثم وفاته، وسأحاول - ما أمكن - أن أجعل طوق الحمامة رائدي في هذه الناحية .

وفي البحث الثاني أتناول مذهب الظاهري، الذي شكل منحى رئيسياً في حياته وكان له أثره الظاهر على حياته الخارجية وحياته النفسية ، وسأبين المرحلة التي اعتنق فيها المذهب ، وأيهما كان أسبق إلى الوجود ؛ تأليف الطوق أم اتباع المذهب الظاهري .

وفي المبحث الثالث أتناول مظاهر موهبته ، ونشاطه الأدبي ، من خلال شهادة دارسيهله ، أو من خلال حديثه عن نفسه ، وتجلي هذه المظاهر في نثره وفي نقده ، وهو أحد مظاهر موهبته .

ويقع الفصل الثاني في ثلاثة مباحث أيضاً ، يأتي أولها ليدرس سير الطرق والأخبار النثرية ، التي يسوقها ابن حزم كثيراً قبل أن يستشهد بشعره ؛ من أجل تبين مصداقيتها أولاً ، ثم من أجل تبين أثرها على التجربة الشعرية ، التي تتناولها الدراسة في المبحث الثاني من هذا الفصل ، فنوضح مفهومها العام ، ثم تعرض تجربة الطوق على هذا المفهوم ، ثم تبين كيف صارت الأخبار والسير مصادر للتجربة الشعرية . وبعض خصائص هذه التجربة ، ثم أخيراً رأي حولها .

ويأتي مبحث ثالث في هذا الفصل ، آثرت أن أعرض فيه للموقف النقدي في الطوق ؛ ذلك أن سلوكه الشعر يترجم في هذا الملاحظات النقدية المتناثرة بين المقطوعات .

وأما الفصل الثالث الأخير ، فقد خصصته لدراسة غزل ابن حزم دراسة فنية ، ويتوزع على ثلاثة مباحث أيضاً، الأول لدراسة اللغة والأسلوب، على مستوى المعجم اللغوي المفرد ، ثم على مستوى الأسلوب الجملي المركب ، ويتلوه المبحث الثاني لدراسة الصورة الفنية بنمطيهما التشبيهية البسيطة ، والاستعارية المركبة .

ويأتي المبحث الثالث ليعرض الجانب الإيقاعي الموسيقي في غزل ابن حزم ،
وهو يتناولها من جانبين : الموسيقي الخارجية ؛ ممثلة في الأوزان والقوافي ، والموسيقى
الداخلية ؛ ممثلة بعلاقة الألفاظ بعضها ببعض ، وأنواع الأصوات ، وأبنية بعض الألفاظ
.

وأخيراً تأتي الخاتمة لتعرض ما تمت دراسته ، وتبين الملاحظات والنتائج التي
توصل إليها الباحث بعد هذه الدراسة .

وأسأل الله العليّ القدير أن يوفّقني بمؤهّـه وكرمـه ، إلى إتمام ما أردته على أحسن
وجه ، وأن لا يجعله حجة عليّ يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم .

علي مصطفى محمد أيوب

الفصل الأول

المبحث الأول: سيرته

(ولادته، تربيته، حياته، ثقافته، وفاته)

المبحث الثاني: الظاهرية والطوق

(ظاهريته وأصولها، طوق الحمامة، المذهب الظاهري وتأليف الطوق)

المبحث الثالث: موهبته الفنية ونشاطه الأدبي

(مظاهر الموهبة الشعرية، خصائص نثره، مشاركته النقدية)

المبحث الأول

سيرته⁽¹⁾ :

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب⁽²⁾ بن صالح بن خلف ابن معدان بن سفيان ، بن يزيد الفارسي ، مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي⁽³⁾.

ولد بقرطبة في الجانب الشرقي من روض منية المغيرة في مدينة الزاهرة⁽⁴⁾ بعد صلاة الصبح ، وقبل طلوع الشمس آخر يوم من شهر رمضان سنة أربع وثمانين وثلاثمئة " ⁽⁵⁾ وأصل آبائه من قرية (مَنْتَ لِيْشَم) من إقليم الزاوية من عمل أولبة من كورة لبلة⁽⁶⁾.

(1) انظر ترجمته عند : صاعد ، طبقات الأمم 97-99، والحميدي ، الجذوة 290-293، وابن الأبار ، المطمح ص 279 ، وابن بسام ، الذخيرة ق 1، م 1، 167-175، وابن بشكوال ، الصلة 395-396، وابن سعيد المغرب 354/1، والمراكشي ، المعجب ، 93 - 97، ولسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة 111/4-116، والمقري ، نفح 77/1-84، وياقوت ، معجم الأدباء 4 / 1650 ، والذهبي ، السير 18/184-212، وتذكرة الحفاظ 1146، وابن خلكان ، الوفيات 3/325-330، وابن تغري بَردي ، النجوم الزاهرة 5/76، وابن حجر ، لسان الميزان 5/488-495 ، وقد صدرت عنه الكثير من الدراسات والبحوث ، وللاستزادة ، انظر ثبت المصادر والمراجع.

(2) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 224.

(3) هكذا ساق صاعد الأندلسي معاصر ابن حزم، نسبة في طبقات الأمم ص 97، وهو أول من أورد نسبه كاملاً، وعنه أخذ من ترجم له فيما بعد.

(4) وهي المنطقة التي كان يسكنها والد ابن حزم، انظر : ابن حزم، طوق الحمامة، ص 251 .

(5) هذا ما كتبه بخط يده أبو محمد إلى صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، ص 99

(6) المصدر نفسه ، ص 97-98، وتروي (مَنْتَ لِيْشَم) بفتح الميم وسكون النون وفتح التاء المثناة من فوقها ، وكسر اللام، وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الشين المعجمة وفي آخرها ميم، انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان، 3/329-330.

كان والده أحد العظماء من وزراء المنصور محمد بن أبي عامر ، ووزر لابنه
المظفر بعده ، وكان المدبّر لدولته (1) " وقد كان من أهل العلم والأدب والخبر، وكان
له في البلاغة يدٌ قويةٌ " (2) وقد وصفه ابن حيان بأنه " المعقّل في زمانه ، الراجح في
ميزانه... وهو الذي بنى بيت نفسه في آخر الدهر برأس رابية ، وعمّده بالخلال
الفاضلة، من الرجاحة والمعرفة والدهاء والرجولة والرأي، فاغتنى جرثومة شرفٍ لمن
نماهم... (3) "

في قصر هذا الوزير نشأ ابن حزم أول ما نشأ ، ويبدو أنه كان له أخٌ شقيقٌ
يكبره بخمس سنوات ، أي أنه كان قد ولد سنة 379هـ ، والأرجح أنه (عُمُر) الذي
تعودُ عليه كنية والده (4).

وبشير ابن حزم إلى بعض ملامح التربية والتعليم التي كان يؤخذ بها في
طفولته ، فهو لم يجالس الرجال إلّا وهو في حدّ الشباب، وحين تبقّل وجهه (5)، ولذلك
فقد عهدَ أبوه بتعليمه إلى نساء القصر اللاتي - ولا بدّ - كنّ يتمتعن بقدرٍ من الثقافة
العلميّة والأدبيّة ، مكّنهنّ من القيام بهذه الوظيفة التي أنيطت بهنّ ، وعن ذلك يقول
ابن حزم : " ولقد شاهدت النساء ، وعلمتُ من أسرارهنّ ما لا يكاد يعلمه غيري ، لأنّي

(1) صاعد ، الطبقات ، ص 98 .

(2) الحميدي ، الجذوة ، ص 117 - 118 ، وعنه نقل ابن بشكوال في الصلة ، 1 / 31 .

(3) ابن بسام ، الذخيرة ، ق 1، م 1، ص 170 .

(4) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص 259 .

(5) المصدر نفسه ، 166 .

رُبِّيتُ فِي حُجُورِهِنَّ ، وَنَشَأْتُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ ، وَلَمْ أَعْرِفْ غَيْرَهُنَّ ... وَهَنَّ عَلَّمَنِي الْقُرْآنَ ،
وَرَوَّيَنِي كَثِيرًا مِنَ الْأَشْعَارِ ، وَدَرَّبَنِي فِي الْخَطِّ... (1) "

"وما من شك في أنّ لمثل هذا اللون من الحياة أثره في توجيه مشاعره، وطبع
مداركه ، دون أن يقف الأمر إلى تعرّف أسباب النساء ، وفحص أحوالهنّ – كما يقول
عن نفسه- فالأمر أعمق من ذلك أثراً " (2).

وأثناء هذه النشأة المقصورة بين الإماء والجواري والقيان ؛ أصيب ابن حزم بعددٍ
من الأمراض التي ربما كان لها أثرها في تشكيل شخصيته ، وتكوين مزاجه وأخلاقه ،
فقد أصيب في صباه بخفقان القلب (3) ، كما أصيب أيضاً بعلّةٍ شديدة في الطحال ،
والى هذه العلة يعزو ضيق خلقه ، وقلة صبره ، وحدة طبعه (4).

ولعلّ إصابته بهذه الأمراض أيضاً كانت وراء تأخير اجتماعه بالرجال
ومجالستهم ، وإحاطته بالنساء يرعينه ، ويأخذنه بألوان من التدليل والملاطفة والعطف،
لاسيما أنّهنّ أكثر إشفاقاً ، وأكبر مقدرة على الاهتمام بأمثاله ، وأشدّ حذراً أن يناله
شيءٌ من المكروه .

" وقد رأينا أنّ تعليمه في هذه المرحلة الأولى يكاد يكون مقصوراً على تعلّم
الكتابة والقراءة ؛ أيّ تحصيل الأداة الأولى للمعرفة ، ثم يلي ذلك حفظ القرآن ، ورواية

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص166.

(2) الحاجري ، ابن حزم ، ص39.

(3) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص111.

(4) ابن حزم ، رسائله (رسالة في مداواة النفوس) ج 1 ، ص391 ، وانظر ص 388 أيضاً .

الشعر، فقد كانت - إذن - تربيةً ترمي في حقيقتها إلى تقويم الذوق الفني وتنقيفه ،
والى إعداد اللسان وتهذيبه ، وهو أداة التعبير عما يستشعره الذوق ، وما يُحسّه من
صور الفن " (1).

وفي ظل هذه الحياة المترفة ، التي في ظلها تزداد النفوس رقةً ، والمشاعر
إرهاقاً، والأرواح صفاءً ، تعرضّ لفنونٍ من الحبّ، وهو يتحدث عن ذلك في غير حرج
ولا مبالاة ، فيقول مثلاً : " وعني أخبرك ؛ أنني أحببتُ في صباي جاريةً لي شقراء
الشعر ، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو أنه على صورة الشمس،
أو على صورة القمر نفسه ، وإنني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت، ولا
تواتيني نفسي على سواه ، ولا تحب غيره البتة " (2).

وفي موضعٍ آخر ، يعرضُ صورةً من صور حبّه ، يمكن من خلالها تبين
بعض التفاصيل التي كانت تحيط به في أثناء صباه ، حين كان يعيش في القصر بين
النساء، يقول: " وإنني لأخبرك عني؛ أنني ألقت في صباي ألفة المحبة جارية نشأت في
دارنا، كانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً ، وكانت غاية في حسن وجهها
وعقلها، وعفافها ، وطهارتها ، وخفرتها، ودمائتها، عديمة الهزل، منيعة البذل، بديعة
البشر، مُسَبَّلَة السَّتر ، فقيدة الدّام، قليلة الكلام، مغضوضة البَصَر، شديدة الحذر، نقيّة
من العيوب ، دائمة القُطوب ، حُلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض، مليحة الصدود،

(1) الحاجري ، ابن حزم ، ص40-41 .

(2) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص130 .

رزينة القعود ، كثيرة الوقار ، مستلذة النّفار ، لا توجّه الأراجي نحوها ، ولا تقف
المطامع عليها، ولا مُعرّس للأمل لديها، فوجهها جالبٌ كلّ القلوب، وحالها طاردٌ من
أمّها، تزدان في المنع والبخل، ما لا يزدان غيرها في السماحة والبذل، موقوفةً على
الجدّ في أمرها ، غير رغبةٍ في اللّهِ ، على أنّها كانت تُحسِنُ العود إحساناً جيّداً ،
فجنحتُ إليها ، وأحببتُها حبّاً مُفرطاً شديداً ، فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبني
بكلمة ، أو أسمع من فيها لفظةً - غير ما يقع في الحديث الظاهر لكل سامع - بأبلغ
السعي ، فما وصلتُ من ذلك إلى شيء البتّة.

فلَعَهْدِي بِمُصْطَنَعٍ كان في دارنا ، لبعض ما يُصْطَنَعُ له في دور الرؤساء ،
تجمّعت فيه دِخْلُنا ودِخْلَةُ أخي - رحمه الله- من النّساء، ونساء فتياننا، ومن لاث بنا
من خدَمنا ممن يخفّ موضعه ، ويلطّفُ محلّه ، فلبثنَ صدراً من النهار ثمّ نزلنَ
إلى البستان، فرغب عجائزنا وكرائمنا إلى سيّدتها، في سماع غنائها، فأمرتها فأخذت
العود وسوّته بخفّرٍ وخجلٍ ، لا عهدَ لي بمثله- وإنّ الشيء يتضاعفُ حُسْنُهُ في عين
مستحسنه- ثم اندفعت تُغني بأبيات العباس بن الأحنف ، حيث يقول :

إِنِّي طَرَبْتُ إِلَى شَمْسٍ إِذَا غَرَبَتْ كَانَتْ مَغَارِبُهَا جَوْفَ الْمَقَاصِيرِ
شَمْسٌ مُمَثَّلَةٌ فِي خَلْقٍ جَارِيَةٍ كَأَنَّ أَعْطَافَهَا طَيُّ الطَّوَامِيرِ
فَالْوَجْهَ جَوْهَرَةً، وَالْجِسْمَ عَبْهَرَةً وَالرَّيْحَ عَنَبَرَةً، وَالْكُلَّ مِنْ نُورِ
كَأَنَّهَا حِينَ تَخْطُو فِي مَجَاسِدِهَا تَخْطُو عَلَى الْبَيْضِ أَوْ حَدَّ الْقَوَارِيرِ

فلَعَمْرِي لَكَانَ المَضْرَابَ إِنَّمَا يَقَعُ عَلَى قَلْبِي ، وما نَسِيتُ ذلكَ اليومَ ، ولا أنساه
إلى يومٍ مفارقتي الدنيا ، وهذا أَكْثَرُ ما وَصَلْتُ إِلَيْهِ مَنْ التَّمَكَّنَ مِنْ رُؤْيَيْهَا ، وسماعِ
كلامِها... " (1).

وهذا نصٌّ ثمينٌ يشير فيه ابن حزم إلى بعض تفاصيل تلك الحياة التي عاشها،
كما يُطْلِعُنَا النَّصُّ على بعض ملامحٍ من نفسية ابن حزم وشخصيته ، التي تميل نحو
الصفات المعنوية الروحية ، أكثر من ميلها إلى الصفات الجسدية الحسية ، ويظهر
ذلك من خلال تلك الصفات الخلقية التي خلعتها هذه الجارية .

كما أن وجوده بين النساء في مثل ذلك المجلس اللاهني ، وتلك النزهة الغناء،
يدلُّ على حرص النساء عليه ، حتى في أوقات لهوهنَّ ، وملازمتهنَّ له حتى في
سويغات ترويحهنَّ عن أنفسهنَّ.

ويشير النصُّ إلى مدى رقة نفس ابن حزم ، وشدة تأثرها بالجمال ، وانفعالها
به، وتفاعلها معه ، وتقديرها له بكافة صوره وجوانبه .

وربما يلفت الانتباه أيضاً تجنُّب ابن حزم ذكر والدته أو أخواته مباشرة ، وحين
اضطرَّ إلى ذكر والدته دعاها بـ(السيدة) وهي التي رغب إليها النساء في أن تأذن
للجارية بأن تسمعهن صوتها بالغناء ، وربما كان يعني بقوله (كرائمنًا) أخواته، ولكن
لماذا تجنَّب ابن حزم الإشارة إلى حريم بيته ؟ أكان ذلك نوعاً من التصوُّن ، والنأي
بهنَّ عن أن يذكرن في هذا الكتاب ؟

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص 249 – 251 .

على كلِّ حالٍ فإنَّ ابن حزم وإن عاش في صباه تلك العيشة المترفة اللاهية ،
المترعة بأنواع العطف والرعاية والتدليل ، إلاَّ أنه كان في الجانب الآخر مأخوذاً
بضوابط الدين والأخلاق ، التي لم يكن يُسَمِّحُ له بتجاوزها ، أو بتعدي حدودها وعن
ذلك يقول : "... ومع هذا يعلمُ الله ؛ وكفى بع عليماً ، أني بريء الساحة ، سليم
الأديم، صحيح البشرة ، نقي الحجرة ، وإني لأقسم بالله أجلَّ الأقسام ، إنني ما حللتُ
مئزري على فرجٍ حرام قطُّ ، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا منذ عقلت إلى يومي هذا ،
والله المحمود ، على ذلك ، والمشكور فيما مضى ، والمستعصم فيما بقي ... وكان
السبب فيما ذكرته ، أني كنتُ وقت تأجج نار الصبا ، وشرَّة الحداثة ، وتمكَّن غرارة
الفتوة ، مقصوراً مُحَظَراً عليَّ بين رقباءٍ ورقائب " (1).

وكما عانى ابن حزم الحبَّ في صباه ، فقد عانى قولَ الشعرِ أيضاً منذ صباه،
فقد أشار في أحد المواضع إلى أنه قال أبياتاً قبل بلوغ الحُلُم (2) أو في صباه (3) ، وقد
صنَعَ بعض الأبيات لإحدى كرائم المظفر بن أبي عامر (4) كما قال بعض الأبيات في
تلك الجارية التي سقت قصته معها قبل قليل .

تلك صورةٌ عن حياةِ ابن حزم في صباه، رسم ملامحه ما تركه من إشارات

مفهمة إلى بعض جوانبها.

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص 272 .

(2) انظر: المصدر نفسه، ص113 .

(3) انظر: المصدر نفسه، ص194 .

(4) انظر: المصدر نفسه، ص 255 .

ويبدو التنازع فيها بين الالتزام الديني أو التربية الدينية، وخفض العيش ظاهراً

غير أنه كان له أثر مميز في توجيه نشاطه الوجداني تلك الوجهة الفنيّة (1).

فإذا تركنا هذه المرحلة، وتابعنا ابن حزم فيما بعد، وجدناه يبدأ فترة من حياته

تُعدّ خروجاً عن المألوف ، وذلك أنه ينطلق بحياته الخاصة إلى العالم الواسع الرحيب

، خلف أسوار القصر ، وبعيداً عن أعين الرقباء والرقائب ، في مجالس المحدثين ،

وحلقات الرواة .

ومنذ ذلك الحين ، وفي فترة مبكرة من حياته ، يبدأ بالسماع (2) وملاقة العلماء

والأخذ عن الشيوخ ، وقد كانت هذه المرحلة من أخصب مراحل حياته ، حيث أخذ

أثناء طلبه للعلم بالتعرّف إلى شخصيات كان لبعضها أثر كبير في تقويم اتجاهاته

الخلقية والسلوكيّة (3) كما كان لصحبة بعضها الآخر دور لا ينكر في صقل موهبته

الأدبيّة ، وتهذيب ملكته الشعريّة ، من خلال تلك المساجلات والحوارات التي يتبادلها

مع أصدقائه ، أثناء انطلاقهم نحو مجلس من مجالس العلم ، أو أثناء اجتماعهم في

مناسبة ما (4).

(1) انظر : الحاجري ، ابن حزم، ص44-45.

(2) انظر : الحميدي ، الجنوة ، ص 290 .

(3) يقول ابن حزم في الطوق : " فلما ملكت نفسي وعقلتُ، صحبتُ أبا علي الفاسي ... وكان عاقلاً عاملاً ، عالماً، ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح... وما رأيت مثله جملةً علماً وعملاً وديناً وورعاً ، فنفعني الله به كثيراً وعلمت منه موقع الإساءة ، وقبح المعاصي " . الطوق ، ص 273 .

(4) ذكر الحاجري بعض هؤلاء الأصدقاء ، وبعض تلك المناسبات ، انظر: ابن حزم ، الطوق ، ص75-77.